من ضوء الإسلام

هل من سبيل لسعادة الفرد والأمة

للأستاذ محمد يوسف موسى

كل منا يلتمس لنفسه الخير ويبذل في ذلك وسعه ، وكلنا يزعم أنه برٌّ بأمته حريٌّ بها ، فهو لا يألو جهداً في القيام بالواجب في عمله ، وبما يعود على أمته بالسعادة والرفعة . فلم إذاً لا يجد المرء أنى تلفت إلا من يندب شقاوة الجد ، وخسارة الأمس ، واليأس من الغد ؟ وليس حال الجماعات بأهنأ من حال الأفراد . هؤلاء المزارعون يشكون عدم البركة وفتك حشرات الأرض بخيراتها ، والمعنَوْنَ بالشئون العامة يحز في نفوسهم تفكك وحدة الأمة وتعثرها في طريقها . لماذا هذه الظاهرة التي تدعو للرثاء ، وليس منا إلا من يزعم أنه البار بأمته العامل لخيرها ؟ في رأيي أن مرد ذلك كله أمران : أحدهما علة شقاء الأفراد ، والآخر علة شقاء الأمة

يصبح الواحد ولا هم له إلا الألم اللاذع لما يرى أنه فاته في أمسه ، والتفكير المرمض فيما قد لا يكون في غده ، فيصرفه ذلك عن تذوق ما في حاضره من لذة وسعادة . تجد هذا الفلاح دائم الحسرة موصول الألم لأنه لم يبع قطنه بأربعة جنيهات كما باعه جاره ، والتلميذ دائم الهم خشية ألا يجد عملاً متى فرغ من دراسته ، وهكذا إذا تقصَّيْت أحوال الناس جميعاً ، تجد الأسى على الماضي والخشية من الغد ، يفوتان علينا التنعم بالحياة وما تفيضه من هناءة وسرور . ليعمل الواحد منا واجبه ، وليطرح الأسى الفارغ على الذاهب ، والخشية المبالغة من الآتي ، وأنا كفيل بأنه سيجد برد السعادة . « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ؛ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . هل رد الأسى نعياً ذهب ؟ وهل يرد الألم مقدماً للمستقبل ما قد يجيء به من محنة ؟ اللهم لا . إذا فلم يعمل الإنسان بنفسه لشقائه وتكدير أيامه ؟

من المأثور عن إپيكتيت الرواقي[1] أنه كان يوصي بأن يتعرف المرء ما يتعلق به من الأعمال فيعمله على أكمل وجوهه ، وما هو لله فيتركه له . للإنسان أن يسعى لغرضه في شرف ونبل أو في غش ودس ، كل ذلك ممكن ، فليمض إذاً قُدُماً لغرضيه في شرف ونبل ، وليس له أن تذهب نفسه حسرات إن حيل بينه وبين إدراك ما يريد إذا بذل ما في طوقه ، لأن الوصول فعلاً للغايات رهن بإرادة الله وحده . هذه فلسفة لها جلالها وبساطتها وجمالها ، ولكن أجل منها أن أصحابها أخذوا أنفسهم بها . هذا أحدهم وهو هِلفيدُ بُوسْ پُرْسكِس[2] كان عضواً بمجلس الشيوخ بروما فطلب منه الأمبراطور ذات يوم أن يتأخر عن حضور جلسة خاصة ، فكان بينهما هذا النقاش :

— لا أريد أن تذهب للمجلس

— لك أن تفصلني من العضوية ، أما أنا فسأذهب ما دمت عضواً .

— إذا شهدت الجلسة فلا تبد رأيك

— لك ألا تطلب رأيي ، وإذاً فلن أتكلم

— لكنه إذا حضرت الجلسة فسأضطر لسؤالك رأيك

— إذاً فسأدلي بما أراه عدلاً

— ذلك معناه أنك تسعى للموت

— ومتى قلت لك إني من الخالدين ! كلانا يفعل ما يتعلق به ؛ لك أن تأمر بقتلي ، ولي أن أصبر أو أجزع ، وإذاً فسأتحمل الموت وآلامه صابراً[3]

---

(١) إپيكتيت Epictète فيلسوف رواقي معروف ، عاش في القرن الأول للميلاد ، وكانت حياته تمثل فلسفته الرائعة البسيطة

(٢) أحد الرواقيين الرومان . نفي في عهد نيرون ، وقتل بأمر الأمبراطور فيسباسيان Vespatien سنة ٧٥ م

(٣) دروس الأخلاق تأليف ماريون Marion

لله ما أنبل هذا المبدأ وما أروع تطبيقه ! وما أسهل ما يكون المرء سعيداً إذا وثق بالله، واحترم ما فيه من رجولة فأرضى ضميره!

أما الأمة فى مجموعها ، فأرى أن علة تعثرها فى خطواتها ، وابتلاءها بكثير من المحن فى الأنفس والأموال ، وتفكك الروابط وانحلال الأواصر ، وتفرق الزعماء — أرى أن ذلك كله يرجع إلى انسلاخنا عن الدين شيئاً فشيئاً ، وإلى مبدأ الأثرة الذى أخذ منا بالزمام . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن ؛ ما ظهرت الفاحشة فى قوم يعمل بها علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط عليهم عدوهم فاستنفدوا بعض ما فى أيديهم ، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم » أعتقد أنه بالاحتكام لهذا الحديث المبين نجد الأمر واضحاً ، وأن السبب فيما نحن فيه من بلاء جلى

لم نعجب من حبس الله عنا عونه ، وفينا من الرجال المحسوبين على الدين من لا يبالى أن يسخط الله ، كما يبالى أن يغضب عبداً من عبيده ؟ وما بالنا نجزع من ازدياد الإجرام وسببه الفقر وتأصل الحقد فى القلوب ومأتاه عدم القسم فى الحقوق والواجبات؟ ولماذا نجأر بالشكوى من استئصال حشرات الأرض لكثير من الزروع والأثمار ، وقد منعنا الزكاة أربابها ؟ إن الله غنى عن صيام النهار وقيام الليل إذا كان لا يصحبهما إعطاء الحقوق لأصحابها . إن تربة مصر لتدر الذهب ، فليت شعرى كيف تتحجر منا قلوب ، فلا تحس الآلام التى تنضح بها نفس الفقير ، ولا يجد مواسياً ؟ ! ولماذا نسمى ، فلا نبصر الشقاء مجسما فى أناس لم يبق لهم من الآدمية إلا الاسم بفضل جحودنا وأثرتنا ؟! إن لهؤلاء المحرومين ، وهم شركاؤنا فى الإنسانية ، وإخواننا فى الوطن ، حقاً معلوماً فيما رزقنا الله من ثراء يتسع لقضاء الصيف فى أوربا وغير أوربا ، وتضييع مئات الآلاف من الجنيهات على اللهو الفارغ والمتاع الدّون ...

هل تريدون دليلاً على ما يسود أخلاقنا من أنانية ممقوتة وعدم رعاية للصالح العام؟ دونكم أدلة لا دليلاً واحداً : ماذا ترون فى انعدام التناسب بين صغار المرتبات وكبارها إلى درجة شنيعة ، لا توجد إلا فى بلاد الشرق المسكينة؟ وفى التفرقة بين الطبقات فى كثير من مرافق الحياة ؟ بل ماذا تقولون فى المريض المعدم لا يجد له راثياً ، ولا لآلامه مواسياً ، ويطرد من مستشفى لآخر ، حتى يموت وعياله وأهله تتفطر نفوسهم حسرات ، بينما يحدثنا القفطى فى كتابه « أخبار الحكماء »(١) أن وزير المقتدر بالله العباسى على بن عيسى وقع إلى سنان بن ثابت كبير الأطباء « بإنفاذ مقطبين ، وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون فى السواد ، ويقيمون فى كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون إلى غيره » . أليس فى بعض هذه المثل ما يدل على ما يتملك أمرنا من أثرة هى بعض السبب فيما نحن فيه من بلاء مبين ؟

وأخيراً ما هو العلاج ؟ هو فى رأيى أن ننعم بحاضرنا دون أسى على الماضى ، وأن نحارب الأنانية فى أنفسنا وفى غيرنا ، وأن يعمل كل منا واجبه وإن كان فى ذلك أذى له ، وأن يطلب حقه من سالبيه ويلح فى اقتضائه ؛ فإن السكوت عن طلب الحق جريمة تعدل عندى عدم القيام بالواجب. نسأل الله حسن الحال والتوفيق والسداد .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للوزير جمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

صدرت الطبعة الجديدة من :

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة الرسالة
الثمن ١٢ قرشا